



قبل إعلان موسكو خطتها الحربية للتدخل العسكري في سوريا، استقبلت روسيا وفداً إسرائيلياً أمنياً وعسكرياً على المستوى، في 25 سبتمبر/أيلول الماضي، شمل رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلي غادي آيزنكوت، ورئيس جهاز الاستخبارات العسكرية هرتسي هاليفي، ورئيس "هيئة الأمن القومي" يوسي كوهين، والسكرتير العسكري للحكومة إليعازر طوليدانو، والتقي قادة الروس السياسيين والعسكريين.

لم يكن هذا اللقاء سرياً حيث شُكلت لجنة مشتركة معنية بتطورات الأوضاع في سوريا، لكنه أيضاً ليس علنياً ولم يُكشف النقاب عن تفصيلاته المهمة للغاية في هذه المرحلة من تاريخ المشرق العربي وأنعطافاته الاستراتيجية، والدور الذي تلعبه هذه الترويكا العجيبة بين موسكو وطهران وتل أبيب بموافقة ضمنية وغض طرف من الغرب وواشنطن، لا علاقة له بالضجيج الإعلامي المعارض لهجوم الروس على الثوار والمدنيين السوريين.

ومن دون أدنى شك كانت طهران حاضرة في طاولة المفاوضات، بمشروعها العسكري السياسي المشترك مع الروس لصناعة سوريا الجديدة.

وتدخل الروس يؤكد عجز الإيرانيين عن تثبيت صمود النظام الذي أُعطي فرصةً عديدة خلقتها له تدخلات أضعفـت الثورة ومزقت ميدانها وغرست فيها داعش (تنظيم الدولة الإسلامية) كحربة تطاردها، وتنحن جراحها التي تفاقمت بتشريد الثوار خاصة بعد مشروع إسقاط الجيش السوري الحر، الذي نفذ بنيران صديقة غبية، سقطت رهاناتها اليوم أمام حصيلة الميدان المفتت الذي يسعى قادة الثورة الأصليون إلى إعادة لحمته من جديد بصعوبة بالغة.

لكن مجمل هذا التحالف والترويكا الجديدة لا يمكن أن يؤخذ من خالل واقع هذه الصورة، وهو عجز النظام، فهو بحد ذاته تحرك مركزي جديد في خريطة التحالفات، وسيؤدي إلى نتائج خطيرة على الشعب السوري والثورة، حتى لو فشل فسيأتي

فشله بعد مسيرة دماء نازفة إضافية، يعطيها الشعب السوري، وكل المشرق العربي بكل طوائفه، وليس فقط العرب السنة المستهدفين اليوم، لمنع تغيير معادلة دول الأقليات إلى دول المواطنة وحضور الغالبية الإسلامية.

ورغم سقوط الاتحاد السوفياتي كان الروس يكررون، خاصة في عهد الرئيس بوتين، مقوله العودة لتحقيق التوازن مع الناتو الذي كان يخلفه العالم اليساري الذي تقوده موسكو، ومع أن الأيديولوجية марكسية للحزب الشيوعي ليست حاضرة في القيادة، لا تزال أطقم المرحلة الثقافية والسياسية بمشروعها المزعوم، كركن لليسار العالمي، موجودة في الواجهة الروسية بل وفاعلة مع الوطن العربي والشرق الإسلامي.

لكنها مفارقة معاكسة غريبة، ففي حين لعب حزب تودة الشيوعي الإيراني دور المعارضة بعد شراكته للخميني في الثورة، بعد أن رأى استفراد الطائفية الدينية بالحكم، وتغيب العقل المدني، فأجهز النظام الطائفي على قيادات كبيرة منهم، والمعارضة اليوم لا تزال في اليسار من منظمة خلق إلى اليسار الشيعي، إلا أن الروس باتوا حلفاء العمائم، بل إن حديث لافروف الشهير عن حق الشيعة والأقليات أمام الغالبية الأممية للسنة يثير سخرية تاريخية.

ولكن بالجملة بهذه السخرية لن تغير قواعد اللعبة التي باتت فيها موسكو حليفاً سياسياً ثم عسكرياً لإيران، وميليشياتها الطائفية المتعددة، التي تحاصر الخليج العربي وتمتد إلى حواضنه من خلال شبكة التنظيمات الحركية، التي كرسـت فصل المجتمعات العربية الشيعية عن إطارها الطبيعي مع الأمة وحولها للدعم الإيراني، إلى قوة نفوذ تتنزع قرار الطائفة في كثير من النواحي.

ومن المفارقات أيضاً أن هذه البنية خلقها الأميركيون بعد احتلال العراق، واليوم تستخدـمـها موسكو الخصم التاريخي السياسي في الحرب الباردة، لكن الأهم أنها تزحف من جديد إلى مياه الخليج الدافئة، تحت عمامـةـ طهران وخطوطـ تـلـ أبيـبـ.

ولقد جهد الأميركيون كثيراً في ضجيـهمـ الإعلامـيـ، حين غـزـتـ مـوسـكـوـ الشـيـوعـيـةـ أفـغـانـسـ坦ـ، باعتـبارـ أنهاـ مجردـ خطـوةـ للـوصـولـ إـلـىـ الـخـلـيجـ الـعـرـبـيـ، وـهـوـ مـاـ أـدـىـ إـلـىـ توـظـيفـ دـوـلـ الـمـنـطـقـةـ توـظـيفـاـ مـرـحـلـيـاـ لـكـسـرـ الـرـوـسـ، لـكـنـ تـرـكـتـ أـفـغـانـسـ坦ـ لـوـحـلـ دـمـاءـ لـمـ يـجـفـ، وـاـسـتـخـدـمـ الشـيـابـ الـعـرـبـ فيـ تـفـجـيرـ الـعـلـاقـاتـ بـيـنـ الـفـصـائـلـ الـجـهـادـيـةـ الـأـفـغـانـيـةـ، ثـمـ لـخـلـقـ قـاـعـدـةـ تـحـركـ عـسـكـرـيـ لـهـمـ خـارـجـ أـفـغـانـسـ坦ـ، وـخـسـرـتـ أـفـغـانـسـtanـ كـثـيرـاـ بـهـذـهـ التـدـخـلـاتـ، الـتـيـ كـانـ يـغـنـيـ عـنـهـ الدـعـمـ المـادـيـ لـوـحـدـتـهـمـ وـلـحلـ سـيـاسـيـ بـيـنـ الـمـجـاهـدـيـنـ، بـعـدـ هـزـيـمـةـ الـرـوـسـ فـيـ كـابـلـ.

وكل مراقب يدرك أن واشنطن والآلـةـ الغـرـبـيـةـ ضـخـمـتاـ منـ مـخـاطـرـ زـحـفـ الـرـوـسـ لـلـخـلـيجـ الـعـرـبـيـ، لـتـأـمـينـ أـكـبـرـ استـنـزـافـ منـ دـوـلـ الـخـلـيجـ الـعـرـبـيـ، ثـمـ عـزـزـتـ صـرـاعـاتـ الـأـفـغـانـيـ، وـأـسـقـطـتـ مـشـارـيعـ دـعـمـ مـرـكـزـيـةـ لـهـمـ بـعـدـ سـقـوـطـ الـرـوـسـ، وـإـنـ كـانـتـ سـيـاسـاتـ بـعـضـ قـادـةـ الـجـهـادـ الـأـفـغـانـيـ قدـ تـبرـعـتـ بـمـوـاـقـفـ حـمـقـاءـ عـدـيدـةـ، سـاعـدـتـ الـعـدـوـ وـنـكـبـتـ شـعـبـهـ، وـهـوـ مـاـ يـخـشـىـ عـلـىـ الثـوـرـةـ الـسـوـرـيـةـ مـنـ تـكـرـارـهـ، وـخـاصـةـ بـعـضـ التـدـخـلـ الشـعـبـيـ الـخـلـيجـيـ فـيـ هـوـيـةـ الـفـصـائـلـ، وـدـعـمـ بـعـضـهاـ ضدـ بـعـضـ، وـهـوـ أـمـرـ لـتـنـفـعـ مـعـهـ صـدـقـ النـيـةـ فـيـ التـخـفـيفـ مـنـ مـآـلـاتـ الـأـفـعـالـ الـتـيـ هـيـئـتـ الـأـرـضـيـةـ لـدـاعـشـ.

اليوم يعود الروس لأقرب نقطة من الخليج في الشام وفي العراق بعد دعوة العبادي الرسمية لهم، والأهم من ذلك الخطوط التي ستفتح أمامهم من خلال تنظيمات إيران الحركية، ودعم موقفها في توازنات الاضطراب الكبيرة التي يعيشها الخليج العربي، صحيح أن عاصفة الحزم غيرت المعادلة لكنها لم تحسـمـ، وهي تحتاج إلى بناء سياسي وتحالفات إقليمية شجاعة، وغير متـرـدـدـةـ معـ تركـياـ عـلـىـ الخـصـوصـ لـتـغـيـرـ قـوـاعـدـ الـلـعـبـةـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ.

إن من أخطر الأجواء المساعدة لزحف المعسكر الجديد، نجاح الدبلوماسية الإيرانية في اختراق الموقف الخليجي، والتعامل

مع دولة بصورة منفردة، وهو عمل شجع بل حرض عليه الأميركيون منذ بدايات التوافق في الصفقة النووية، التي شملت ملفات سياسية أكثر أهمية للخليج العربي من المفاعل النووي، ووبخوا عليناً موقف التحفظ الخليجي ثم استرضوه بثمن بخس، دقائق معدودة من هدر أوباما الذي لا ينتهي.

والحوار مع إيران ممكن بصورة جماعية، لكن مع تحقيق توازنات قوية على الأرض، والبقاء في دائرة التفاعل في الميدان الصراعي معها، عبر دعم المشاريع التحررية المركزية، أو سياسات التحالفات الإقليمية وانتزاع المواقف من الغرب اضطراراً، أما عوائق الصراع الطائفي ضد المدينيين الشيعة، فهي أرضية تحصد منها داعش مزيداً من الثغرات، وتهدم حصون الخليج من الداخل، جنباً إلى جنب مع فصائل إيران.

ليس توافقاً ولكن تقاطعاً لمصالح إيران وفوضى التوحش، وحينها وسواء تصارعت حسابات الروس بعوائمها الإيرانية وحسابات واشنطن، أو أكملت توافقها لصناعة خليج جديد، بحسب موازين لافروف للأقليات، فالضمانة هي استمرار تدفق ما تبقى من نفط الخليج، وتتأمين تل أبيب.. هذه هي القواعد الرئيسية، أما شكل دول ومستقبل الخليج العربي فلا يهمهم، أن يكون خليجاً إيرانياً أو خليجاً للخنازير.

الجزيرة

المصادر: